Sana'a University Journal of Human Sciences مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية
Vol. 4 | No. 5 | Page 36 – 55 |2025 | https://journals.su.edu.ye/index.php/jhs
ISSN : 2958-8677

Grammatical Reasoning between Sibawaih and Al-Mubarred A Historical Study.

Yahia Mohammad Ahmed Hushaidan [1,*], Abdullah Ahmed Hamzah Alnahari [2]

[1]Department of Arabic Language- Faculty of Languages - Sana'a University, Sana'a, Yemen.
[2]Department of Arabic Language- Faculty of Education - Sana'a University, Sana'a, Yemen.

***Corresponding author:** yhushaidan@gmail.com & abd.alnahari@su.edu.ye

Keywords

1. Arabic grammar
2. Reasoning
3. grammatical thought
4. Sibawayh
5. Al-Mubarred

Abstract:

This research addresses a key issue in classical Arabic grammatical thought: grammatical reasoning. Early grammarians were deeply engaged in explaining various linguistic phenomena. The study examines this issue through two prominent figures in Arabic grammar, Sibawayh (d. 180 AH) and Al-Mubarrad (d. 285 AH), in their respective works, Al-Kitab and Al-Muqtaḍab. It employs a historical methodology that analyzes examples of reasoning in both texts, highlights the characteristics of each scholar's reasoning approach, and explores the differences between them and the reasons behind these differences. It also considers the perspectives on reasoning among grammarians between these two figures. The study investigates reasoning from multiple aspects, such as alignment with the inherent nature of language, reliance on rational, logical, and philosophical arguments, the role of reasoning in the grammarian's work, methodology used, and the attitude toward differing reasoning approaches by other grammarians. The study concludes with several findings, most notably the evolution of grammatical reasoning among grammarians after Sibawayh, with a shift away from the inherent nature of language toward a more rational, logical, and philosophical approach.

Sana'a University Journal of Human Sciences
مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية
Vol. 4 | No. 5 | Page 37 – 55 | 2025 |
https://journals.su.edu.ye/index.php/jhs
ISSN : 2958-8677

التعليل النحوي بين سيبويه والمبرّد دراسة تاريخية

يحيى محمد أحمد حشيدان [1]*، عبد الله أحمد حمزة النهاري [2]

[1]قسم اللغة العربية ، كلية اللغات - جامعة صنعاء ، صنعاء ، اليمن.
[2]قسم اللغة العربية ، كلية التربية - جامعة صنعاء ، صنعاء ، اليمن.

*المؤلف: abd.alnahari@su.edu.ye & yhushaidan@gmail.com

الكلمات المفتاحية

1. النحو العربي
2. التعليل
3. الفكر النحوي
4. سيبويه
5. المبرد

الملخص:

يتناول هذا البحث قضية رئيسة ومهمة في الفكر النحوي العربي القديم، وهي التعليل النحوي؛ إذ اهتم النحاة القدماء بالتعليل للظواهر اللغوية المختلفة، بشكل كبير، ويدرس البحث هذه القضية من خلال عَلَمَين من أشهر أعلام العربية، هما سيبويه (ت 180هـ) والمبرِّد (ت 285هـ) في كتابيهما "الكتاب" و"المقتضب" بمنهج تاريخي، يقف على نماذج من التعليلات في الكتابين، ويُبيّن سمات التعليل لدى العَلَمَين، وأوجه الاختلاف بينهما، والأسباب الكامنة وراء ذلك الاختلاف، ويقف في أثناء ذلك على التعليل لدى النحاة الواقعين بينهما.

ويعتمد في كل ذلك على النظر في التعليل من جوانب عدة، نحو مدى قرب التعليل أو بعده عن طبيعة اللغة، ومدى اعتماد النحوي في التعليل على الأدلة والحجج ذات الطابع العقلي والمنطقي والفلسفي، والمساحة التي يحتلها التعليل في عمل النحوي، ومنهج النحوي في التعليل، وموقفه من التعليلات المخالفة لتعليلاته لدى غيره من النحاة، متوصّلًا إلى عدد من النتائج، أهمها: تطور التعليل النحوي لدى النحاة بعد سيبويه، وابتعاده عن طبيعة اللغة إلى طابع العقل والمنطق والفلسفة.

المقدمة:

حظيت اللغة العربية باهتمام كثير من العلماء، تفانوا في دراستها ووضع القواعد والأسس التي تسير عليها اللغة بكل مستوياتها، وفي مقدمتها المستوى الصرفي والمستوى النحوي، اللّذانِ لم يكتفِ فيهما العلماء بوضع الأسس والقواعد للظواهر، والتراكيب، والأساليب المختلفة لكلام العرب بعد استقرائه، بل عمدوا إلى إعمال العقل فيها وتحليلها، وكان في مقدمة ذلك تعليل الظواهر والتراكيب والأساليب المختلفة في كلام العرب؛ إذ مضوا مجتهدين في التماس عللها، وشُغِلوا بها منذ وقت مبكر من تاريخ النحو العربي، حتى إذا ما وصلنا إلى الخليل بن أحمد (ت 175هـ) وجدنا له جهودًا كبيرة في التعليل، كان لتلميذه سيبويه فضل حفظها في مدونته الشهيرة "الكتاب"، مضيفًا إليها جهوده في التعليل لكلام العرب، وجاء النحاة بعد سيبويه فتوسعوا في التماس العلل، وتفصيلها؛ حتى أضافوا إلى النحو شيئًا غير قليل مما يمكن القول إنه ليس من النحو، وأضفوا عليه بذلك طابع التعقيد. ويقف هذا البحث على هذه القضية من خلال دراستها لدى عَلَمَين من أشهر أعلام العربية، هما سيبويه، والمُبرّد، من خلال كتابيهما "الكتاب" و"المقتضب" مُبَيِّنًا سمات التعليل النحوي عند سيبويه، وما طرأ عليها من توسيع، ومبالغة، وحرص على التماس العلل وتَتَبُّعها في كل الظواهر عند المبرد، مُعَرّجًا خلال ذلك على النحاة بين سيبويه والمبرد، وصولًا إلى الأسباب الكامنة وراء هذا التحوّل، أو التطور في التعليل النحوي لدى النحاة بعد سيبويه.

أهمية الدراسة

تتأتّى أهمية هذا البحث من مكانة العَلَمَين (سيبويه، والمبرد) بين نحاة العربية من جهة، ومن أهمية المرحلةِ نطاقِ الدراسة (القرنين الثاني والثالث الهجريين) بين مراحل النحو العربي؛ إذ يمكن القول إنها المرحلة الأهم في تاريخ النحو العربي، من جهة ثانية، ومن أهمية التعليل النحوي في فكر النحاة القدماء؛ إذ أولوه عناية كبيرة، وكان عندهم مكوّنًا رئيسًا من مكونات الدراسة النحوية.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى:

1ـ بيان سمات التعليل النحوي لدى سيبويه.

2ـ الكشف عمّا كان للنحاة بعد سيبويه من جهود في التعليل.

3ـ بيان سمات التعليل لدى المبرد.

4ـ عرض أوجه الاختلاف بين منهجي سيبويه والمبرد في التعليل.

5ـ الوصول إلى الأسباب الكامنة وراء التطور في التعليل النحوي لدى النحاة بعد سيبويه.

منهجية الدراسة وإجراءاتها

يدرس البحث التعليل بمنهج تاريخي، يقف على نماذج مختلفة من التعليلات في "الكتاب"؛ لبيان سمات التعليل لدى سيبويه، وعلى نماذج مما كان في التعليل للنحاة بعد سيبويه، وصولًا إلى المبرد؛ لبيان التطور الحاصل فيه، والأسباب المؤدية إليه، غير مستغنٍ عن المنهج الوصفي التحليلي.

ويستفيد البحث من الدراسات حول العلمين وكتابيهما، والدراسات حول التعليل لديهما، وبعض الدراسات في فكر النحاة القدماء.

هيكل الدراسة

واقتضت طبيعة البحث أن يكون على مقدمة، وثلاثة مطالب، الأول: نشأة التعليل النحوي وتطوره، والثاني: التعليل النحوي عند سيبويه، والثالث: التعليل النحوي عند المبرد، ثم نتائج البحث ومقترحاته.

الدراسات السابقة

حظي سيبويه و"الكتاب" بكثير من الدراسات المتنوعة، التي يصعب حصرها، منها:

1ـ سيبويه إمام النحاة، علي النجدي ناصف 1953م.

2ـ من أعلام البصرة سيبويه هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه، صاحب أبو جناح 1974م.

وحظي المبرد و"المقتضب" بعدد من الدراسات، منها: أبو العباس المبرد وأثره في علوم العربية، محمد عبد الخالق عضيمة، 1405هـ، ودخل التعليل في بعض الدراسات التي تناولت العلَمَين، وكتابيهما واحدًا من مواضيع كثيرة، وعلاوةً على ذلك أَفرَدَ بعضُ الدارسين التعليلَ لدى العلمين بالدراسة؛ إذ هناك:

1ـ العلة النحوية في كتاب سيبويه، محمد النهاري، 1413هـ.

2ـ التعليل اللغوي في كتاب سيبويه، شعبان العبيدي، 1999م.

3ـ العلل النحوية في كتاب سيبويه، أسعد العوادي، 2002م.

4ـ التعليل النحوي عند المبرد (ت 285هـ) علي فاضل، 2006م.

5ـ ستيلي (وهيبة) العلة النحوية بين سيبويه وابن جني ـ دراسة موازنة، 2012م.

6ـ عبد الكريم (د. أحمد إسماعيل) مظاهر التعليل النحوي عند المبرد (210 ـ 285هـ)، 2014م.

7ـ حسين (سناء علي) مظاهر التعليل في كتاب سيبويه، 2018م.

لكن ـ في حدود علمنا، بعد البحث والسؤال ـ ليس هناك أحد درس التعليل النحوي بين سيبويه والمبرد دراسة تاريخية.

وهذه دراسة تاريخية، توازن بين التعليل النحوي عند سيبويه وعند المبرد، وتُبَيّن أوجه الاختلاف بينهما، وأسبابها، وتعرّج خلال ذلك على التعليل النحوي عند من بينهما من النحاة.

المطلب الأول: نشأة التعليل النحوي وتطوره:

ارتبط التعليل بالنحو منذ نشأته [1]؛ إذ يجد الدارسُ الحديثَ عنه مصاحبًا للحديث عن نشأة النحو، وأوائل

1 ينظر: المبارك، النحو العربي العلة النحوية نشأتها وتطورها 51 وآل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث 371 والطويل، الخلاف بين النحويين 186 والملخ، نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين 16 وسالم، التعليل في الدرس النحوي العربي 168 والرفوع، أثر العلل النحوية في المسائل الخلافية في النحو العربي1 وعبد

النحويين؛ إذ جاء في عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت 117هـ) أنه "كان أول من بَعَجَ النحوَ، ومدَّ القياسَ والعِلَل"[2]. و"يقال إنه أول من علّل النحو" [3]. و"هو أول من نقَّح النحو، ومدد القياس، وشرح العلل" [4].

وعبد الله بن أبي إسحاق من أوائل النحويين الذين يجد لهم الدارس أقوالًا وآراء منقولة في المؤلفات النحوية، وعلاوةً على ذلك توجد في عبارة "مَدَّ ... العلل"، وعبارة "شرح العلل" إشارة إلى وجود العلل لدى النحويين قبل ابن أبي إسحاق، وأن ما جاء به هو التوسع في العلل بحسب العبارة الأولى، أو شرح العلل بحسب العبارة الثانية.

فإذا ما وصلنا إلى الخليل وجدناه يُوصَف بأنه "الغاية في تصحيح القياس، واستخراج مسائل النحو وتعليله" [5].

والتعليل النحوي عَمَلٌ من اجتهاد النحويين؛ إذ رُوِيَ عن الخليل بن أحمد أنه: "سئل عن العلل التي يعتل بها في النحو، فقيل له: عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟ فقال: (إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم يُنقل ذلك عنها، واعتللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه... فإن سنح لغيري علة لما عللته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأتِ بها)" [6].

وقد مر التعليل النحوي بمراحل؛ إذ بدأ يسيرًا، يغلب عليه القرب من طبيعة اللغة، والبعد عن التكلّف، وعدم الاعتماد على الحجج العقلية، والمنطقية، وطابع الفلسفة، ثم تطور حتى غدا قرينًا للحكم النحوي، وموضوعًا للخلاف، بدا فيه حرص النحويين على تعليل كل الظواهر والأحكام، والتنافس في استنباط العلل، واستعراض القدرات العقلية في ذلك، وحشد الأدلة، والحجج والبراهين العقلية، والمنطقية، والفلسفية بشكل مُتَكَلَّف، مفعم بالجدل، بعيد عن طبيعة اللغة، واتسعت مباحث العلل في المؤلفات النحوية والصرفية، وأُفرِدَ التعليل بمؤلفات خاصة[7].

إنَّ توسُّعَ التعليل النحوي، وبروزَه بشكل كبير في الدرس النحوي، كان بعد سيبويه؛ إذ بدأ التأليف في علل النحو؛ وبرز الاهتمام بالتعليل في مؤلفات النحويين الذين جاؤوا بعد سيبويه، واتسع الاعتماد

الكريم، مظاهر التعليل النحوي عند المبرد (210 ـ 285هـ) 133 وحسين، مظاهر التعليل في كتاب سيبويه 100.

2 ابن سلام، طبقات فحول الشعراء 1/ 14.

3 الأنباري، نزهة الألباء 27.

4 الفيروزآبادي، البلغة 165.

5 الفيروزآبادي، البلغة 45.

6 الزجاجي، الإيضاح في علل النحو 65 ـ 66.

7 ينظر: المبارك، النحو العربي العلة النحوية 51 وما بعدها وترزي، في أصول اللغة والنحو 131 ـ 138 وعون، تطور الدرس النحوي 55، 60 والحديثي، الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه 317 وما بعدها وآل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب 372 والطويل، الخلاف بين النحويين 186 ـ 195 ودياب، التعليل النحوي عند ابن الأنباري من خلال كتابه "أسرار العربية" 46 ـ 48 وستيلي، العلة النحوية بين سيبويه وابن جني دراسة موازنة 9 ـ 20، 35 ـ 37 وقزعوط، التعليل النحوي من أصالة النشأة إلى تأثره بالعلوم 157 وما بعدها.

عليه لدى البصريين والكوفيين [8] فمما ذُكِر من مؤلفات النحويين بعد سيبويه: كتاب "العلل في النحو" لقطرب (ت 206 هـ) وكتاب "علل النحو" للمازني (ت 248هـ) [9] وهذان المؤلفان ــ كما يظهر من عنوانيهما

ــ موضوعهما هو العلل النحوية دون غيرها من المواضيع.

وإفراد العلل النحوية بمؤلف خاص يدل على أن الاهتمام بالتعليل النحوي في هذه المرحلة أكثر منه في المراحل التي سبقتها.

وعلاوةً على إفراد التعليل بالتأليف، برز الاهتمام بالتعليل النحوي في مؤلفات النحويين؛ إذ ظهر شغف الفراء (ت 207 هـ) بالتعليل النحوي، وتَكَلُّفُه فيه في "معاني القرآن"، وذهب مازن المبارك إلى أن لِمَيل الفراء إلى الاعتزال، وشهرته بالفلسفة في مؤلفاته أثرًا في وجود الطابع الفلسفي في تعليلاته [10].

أما ما زعمه السيد رزق الطويل من أن الكوفيين لم يعرفوا ظاهرة التعليل إلا في عهد تلامذة ثعلب [11] فيبدو أنه نتيجة للتسرُّع، والاستقراء الناقص.

وذكر ابن جني في مقدمته لكتابه "الخصائص" في سياق الحديث عن سَبقه في التأليف في "أصول النحو، على مذهب أصول الكلام والفقه"، أن أبا الحسن (سعيد بن مسعدة المعروف بالأخفش الأوسط) ألف كتيّبًا في المقاييس، تضمن "الخصائص" ما يغني عنه، وأشار ابن جني خلال ذلك إلى أن بعض قليلي المعرفة بهذا العلم طعنوا على الأخفش الأوسط بسبب هذا الكتيب، وقدحوا في احتجاجاته وعِلَله، يقول ابن جني:

"... على أن أبا الحسن قد كان صنّف في شيء من المقاييس كتيّبًا، إذا أنت قرنته بكتابنا هذا علمت بذاك أننا نبنا عنه فيه، وكفيناهُ كُلفة التعب به، وكافأناه على لطيف ما أولاناه من علومه المسوقة إلينا، المفيضة ماء البشر والبشاشة علينا، حتى دعا ذلك أقوامًا نزُرت من معرفة حقائق هذا العلم حظوظهم، وتأخّرت عن إدراكه أقدامهم، إلى الطعن عليه، والقدح في

8 ينظر: ابن جني، الخصائص 1/ 2 ـ 3 وابن النديم، الفهرست 58/2 والحموي، معجم الأدباء 2/ 763 والمبارك، النحو العربي العلة النحوية 66، 67 وعون، تطور الدرس النحوي 60 والحديثي، الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه 319 والراجحي، دروس في المذاهب النحوية 241 هـ (1) ودياب، التعليل النحوي عند ابن الأنباري 54.

9 ينظر: ابن النديم، الفهرست 58/2 والحموي، معجم الأدباء 2/ 763.

10 ينظر: المبارك، النحو العربي العلة النحوية 66 والسامرائي، المدارس النحوية أسطورة وواقع 56 وعوض وعبود، موقف النحويين العرب من التعليل النحوي حتى القرن السادس الهجري 128. وبشأن الطابع الفلسفي جاء لدى ابن النديم، في الفهرست 73/2: "قال أبو العباس: كان الفراء يجلس الناس في مسجده إلى جانب منزله وكان ينزل بإزائه الواقدي. وكان الفراء يتفلسف في تأليفاته ومصنفاته. حتى يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة".

11 ينظر: الطويل، الخلاف بين النحويين 80، 81.

احتجاجاته وعِلَله. وسترى ذلك مشروحًا في الفصول بإذن الله تعالى"[12].

ونرى أَنَّ بالإمكان أَنْ نخرج من كلام ابن جني عن مؤلَّف الأخفش الأوسط بالآتي:

1ــ إن الموضوع الأساس لهذا الكتيّب هو الموضوع الأساس لكتاب "الخصائص".

2ــ إنه صغير ومختصر، و"الخصائص" كبير وموسَّع؛ وهذا يُفهَم من وصف ابن جني لمؤلَّف الأخفش الأوسط بالكتيِّب، ولـ "الخصائص" بالكتاب.

3ــ قول ابن جني: "وكافأناه على لطيف ما أولاناه من علومه المسوقة إلينا، المفيضة ماء البشر والبشاشة علينا"، بعد وصفه بالكتيّب، وعدم إرداف هذا القول بما يشير إلى محدودية مؤلَّف الأخفش الأوسط، أو اقتصاره على جوانب معينة؛ يوحي بأن المحاور الرئيسة لمواضيع "الخصائص" موجودة في مؤلَّف الأخفش الأوسط، وأنه (ابن جني) أفاض في تناول تلك المحاور، ووسّعها، وأطال الحديث فيها، وإلَا كان ابن جني سيشير إلى فضل ما قام به، وجديد ما أتى به، بإشارة إلى إهمال الأخفش الأوسط لمحور ما، أو عدم تطرقه لجانب أساس من تلك الجوانب، أو ذكر ما استدركه عليه، وما إلى ذلك؛ يُقوِّي هذا الإيحاء أن ابن جني قبل إشارته إلى مؤلَّف الأخفش أشار إلى فرار البصريين والكوفيين من التأليف في هذا العلم لصعوبته وبُعد مُتَناوَله، ثم استثنى منهم ابن السراج في مؤلَّفه "أصول النحو"، لكنه أردف هذا الاستثناء بالإشارة إلى أن ما وُجِد في أصول ابن السراج من هذا العلم كان مجرد حرف أو حرفين في أوله [13]، ويبدو أنه عبّر بالحرف عن الموضوع الصغير، وبعد هذه الإشارة تكلم ابن جني عن مؤلَّف الأخفش الأوسط، لكنه لم يردفه بما أردف به كلامه عن أصول ابن السراج، ولا بما يقاربه، بل أردفه بالإشارة إلى أن "الخصائص" يصب في مصب مؤلَّف الأخفش؛ إذ ينوب عنه، ويمثِّل مكافأةً للأخفش على علومه اللطيفة التي ساقها في مؤلَّفه.

4ــ إن من أبرز ما اشتمل عليه مؤلَّف الأخفش الأوسط الاحتجاج، والعِلَل؛ إذ ذكر ابن جني ما كان من بعضهم من الطعن على الأخفش، والقدح في احتجاجاته وعِلَلِه؛ ويعني هذا أن في مؤلَّف الأخفش اهتمامًا كبيرًا بالعِلَل، لم يوجد عند سابقيه ومعاصريه؛ إذ لو وُجِد عندهم لم يكن للطعن في الأخفش، والقدح في علله معنى، ما دام سائرًا على نهجهم، وليس متفرّدًا عنهم.

ويصل الاهتمام بالتعليل النحوي إلى المستوى الذي باتت فيه العِلَّةُ رديفَ الحكم النحوي، لا تفارقه عند المبرد، ومن عاصره من نحاة القرن الثالث الهجري، وكَثُرَ ورودُ العلة النحوية لدى النحويين حتى باتت البراعة، وجودة النظر في العلة صفة

12 ابن جني، الخصائص 1/ 2 ـ 3. مما ذكره أصحاب التراجم من مؤلفات الأخفش الأوسط: كتاب المقاييس في النحو. ينظر: ابن النديم، الفهرست 58 والحموي، معجم الأدباء 3/ 1376 والقفطي، إنباه الرواة 2/ 42.

(13) ينظر: ابن جني، الخصائص 1/ 2.

يتميز بها نحوي ممن سواه، وموضوعًا للبحث والمناقشة، ووسيلة امتحان [14].

ونرى أن أثر الفكر المعتزلي في التعليل النحوي وُجِدَ عند المازني والمبرد، كما وجد عند الفراء.ورأى فؤاد ترزي أن ظاهرة التعليل استفحل أمرها في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وأن من عوامل ذلك امتزاج النحو بالمنطق في ذلك العصر [15].

أمّا علي مزهر الياسري، فلم يتوقف للنظر في التعليل عند القرن الرابع، بل وسّع المدة الزمنية، وجعلها غير محددة؛ إذ أشار إلى تطور منهج التعليل في القرون اللاحقة للقرن الثاني الهجري، وإلى إيغال النحويين فيه.

والتطور الذي أشار إليه الياسري ليس تطورًا هيّنًا، بل هو تطور كبير، يمكن القول إنه بلغ الغاية؛ وما يدفعنا إلى هذا القول هو العبارة التي صوّر بها الياسري مدى تطور منهج التعليل في القرون التي تلت القرن الثاني؛ إذ ذهب إلى أن التعليل فيها غدا هو الدرسَ النحوي، ولم يعد من أدوات الدرس النحوي. ورأى أن ذلك التطور كان نتيجةً لتطور الحياة العقلية والاجتماعية، بصورة عامة، وألمح الياسري إلى عامل آخر، هو التَّكَسُّب، وجاء ذكره لهذا العامل خلال حديثه عن براعة المبرد في التعليل، وعَنى به سَعيَ النحويِّ إلى إظهار البراعة في التعليل، والقدرات في استخراج العلل؛ لكسب المزيد من التلاميذ إلى حلقته، أو الدراسة عليه؛ وهو ما من شأنه زيادة ما يتحصل عليه النحوي من المال لقاءَ التدريس [16].

ورأى حسن عون أن العلماء وجدوا في التعليل متنفسًا لأذهانهم، بعد أن ضيّق عليهم كتاب سيبويه المادة النحوية، وأن هذه الظاهرة كانت نتيجة لأمرين، أحدهما: انتشار المعارف الفلسفية في ذلك العصر، وغرام الناس بها، والآخر: يأس النحاة من الإتيان بجديد في النحو، بعد كتاب سيبويه [17].

وذهب علي أبو المكارم مذهبًا يلتقي بمذهب حسن عون، المتعلق بتضييق المادة النحوية، لكن نظرته كانت أوسع، فلم يقصر التضييق على سيبويه؛ إذ ذهب إلى أن نحويي هذه المرحلة، بتعليلهم الظواهر اللغوية، والقواعد النحوية، كشفوا عما في اعتقادهم من اتسام اللغة بالحكمة، لكن ثمة عاملًا آخر أعان على ذلك، ويكمن في أن التقعيد للظواهر اللغوية اكتمل أو كاد يكتمل في المرحلة السابقة (التي تبدأ بعبد الله بن أبي إسحاق، وتنتهي بالخليل) وبداية هذه المرحلة (التي تبدأ بتلاميذ الخليل، وتنتهي بالزّجّاج)؛ إذ شمل التقعيد معظم

(14) ينظر: المبارك، النحو العربي العلة النحوية: نشأتها وتطورها 67، 70 ـ 71 وعون، تطور الدرس النحوي 60 والحديثي، الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه 319 والراجحي، دروس في المذاهب النحوية 241 هـ (1) وعوض وعبود، موقف النحويين العرب من التعليل النحوي 117 ـ 135.

(15) ينظر: ترزي، في أصول اللغة والنحو 132.

16 ينظر: الياسري، الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه 263.

(17) ينظر: عون، تطور الدرس النحوي 60.

الظواهر، ولم تعد هناك جوانب تستدعي الجهد الكبير تأصيلًا وتقعيدًا؛ وهذا ما مثّل فراغًا نسبيًّا لدى النحويين، حَوَّلَ اهتمامهم في هذه المرحلة من التقعيد إلى الانشغال بالتعليل للظواهر والقواعد، وكان سببًا في انتشار التعليل انتشارًا عميقًا، كان من نتائجه توسع التعليل؛ بحيث بات يتناول كل جزئيات البحث النحوي[18].

وزاد عبد الله الخثران على دافع بيان حكمة العربية لدى نحويي هذه المرحلة دافعًا آخر، هو البرهَنَة على الخصائص والمميزات الموجودة في أساليب العربية [19].

المطلب الثاني: التعليل النحوي عند سيبويه

اهتم سيبويه كثيرًا بالتعليل، وهو اهتمام ذو وجود بارز في "الكتاب" كله، بمختلف أبوابه وموضوعاته، بذل فيه جهدًا كبيرًا في التعليل لما في العربية من الظواهر اللغوية والصرفية والنحوية الكثيرة، والأساليب المختلفة، فملأ "الكتاب" بالتعليلات التي نقلها عن أستاذه الخليل، وكثير منها كان إجابات عن الأسئلة الكثيرة التي كان يوجهها إليه، من جهة، وبالتعليلات التي أعمل فكره في استنباطها، أو التماسها، مما رأى فيه تفسيرًا لاستعمال العرب تلك الظواهر والأساليب، من جهة أخرى، وشكّل ذلك ظاهرة منتشرة في "الكتاب" وفي منهج سيبويه، بشكل ملحوظ، يستوقف الدارسين، ويجعل من اليسير عليهم تقرير أن سيبويه أولى التعليل عنايةً فائقةً، واهتمامًا بالغًا، وصولًا إلى القول إن "الكتاب" لا تكاد تخلو مسألة من مسائله من التعليل، والقول بارتكاز "الكتاب"، في أغلبه، على التعليل[20].

ومن أمثلة هذ الاهتمام: تعليله عدمَ بناء الفعل الماضي على السكون بمشابهة الماضي للمضارع في بعض الوجوه؛ إذ توصَف به النكرة كما توصف بالمضارع، ويقع بعد إنْ (الشرطية) كما يقع المضارع، ويقع موقع أسماء الفاعلين في الوصف كما يقع المضارع، فلم يُسكّنوه مثلما لم يسكِّنوا من الأسماء ما شابه الاسم المتمكِّن [21].

ومن ذلك تعليله جَعْل الكسرة في جمع المؤنث علامةً للجر والنصب معًا، بأنهم جعلوا التاء في جمع المؤنث نظيرةً للواو والياء في جمع المذكر، وجعلوا تنوين التاء في جمع المؤنث نظيرًا للنون في جمع المذكر [22].

(18) ينظر: أبو المكارم، أصول التفكير النحوي 158 ـ 159.
(19) ينظر: الخثران، مراحل تطور الدرس النحوي 98.
20() ينظر: المبارك، النحو العربي العلة النحوية 63 ـ 64 وضيف، المدارس النحوية 82 ـ 87 والراجحي، دروس في المذاهب النحوية 241 هـ (1) وأبو جناح، من أعلام البصرة سيبويه هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه 100 ـ 102 والطويل، الخلاف بين النحويين 188 والنهاري، العلة النحوية في كتاب سيبويه 386 والعبيدي، التعليل اللغوي في كتاب سيبويه 320 وستيلي، العلة النحوية بين سيبويه وابن جني37 ـ 38 والرفوع، أثر العلل النحوية في المسائل الخلافية في النحو العربي 5 وحسين، مظاهر التعليل في كتاب سيبويه 102.
(21) ينظر: سيبويه، الكتاب 1/ 16.
(22) ينظر: سيبويه، الكتاب 1/ 18. وخالف الأخفشُ الأوسطُ سيبويه في هذه المسألة؛ إذ قال: "ليست التاء نظيرة الواو والياء، إنما الكسرة نظيرة الياء، والضمة نظيرة الواو؛ ألا ترى أنك لو

ومن ذلك تعليل سيبويه ارتفاع نائب الفاعل، بأن المتكلم فرَّغَ الفعل للمفعول، ولم يَشغَلْهُ بغيره [23].

ومن ذلك وقفته التعليلية عند الألف والنون في الفعل المضارع المتصل بألف الاثنين؛ إذ وقف معلِّلًا لعدم جَعْل الألف حرفَ الإعراب، ولجَعْل النون علامةَ الإعراب ثباتًا في الرفع، وحذفًا في النصب والجزم، لا حرفَ الإعراب، ومعلِّلًا أيضًا الإبقاء على النون مكسورةً كحالها في الاسم، وعدم تنوينها، ثم وقف معلِّلًا جَعْلَ حذف النون علامةً للنصب والجزم معًا، يقول سيبويه: "واعلم أن التثنية إذا لحقت الأفعال المضارعة علامةً للفاعلين لحقتها ألف ونون، ولم تكن الألف حرف الإعراب لأنك لم ترد أن تثنِّيَ يَفعَلُ هذا البناء فتضمَّ إليه فعلًا آخرَ، ولكنك إنما ألحقته هذا علامة للفاعلينَ، ولم تكن منوَّنةً، ولا تلزمها الحركةُ لأنه يُدرِكُها الجزمُ والسكونُ، فتكون الأولى حرف الإعراب، والثانية كالتنوين، فكما كان حالها في الواحد غير حال الاسم وفي التثنية لم تكن بمنزلته، فجعلوا إعرابه في الرفع ثباتَ النون لتكون له في التثنية علامةً للرفع كما كان في الواحد؛ إذ مُنع حرفَ الإعراب، وجعلوا النون مكسورةً كحالها في الاسم، ولم يجعلوها حرف الإعراب؛ إذ كانت متحرّكة لا تثبُتُ في الجزم، ولم يكونوا ليحذفوا الألف لأنها علامةُ الإضمار والتثنية في قول من قال: أكلوني البراغيثُ، وبمنزلة التاء في قلتُ وقالتْ، فأثبتوها في الرفع وحذفوها في الجزم كما حذفوا الحركةَ في الواحد، ووافق النصبُ الجزمَ في الحذف كما وافق النصبُ الجرَّ في الأسماء؛ لأن الجزم في الأفعال نظير الجر في الأسماء، والأسماء ليس لها في الجزم نصيبٌ كما أنه ليس للفعل في الجر نصيب، وذلك قولك: هما يَفْعَلانِ، ولم يَفعَلا، ولن يَفعَلا"[24].

وبكون الجزم في الأفعال نظيرًا للجر في الأسماء، نجد سيبويه يعلل عدم إضمار الجازم في الأفعال[25].

وبهذه العلة نفسها يمنع سيبويه الفصل بين الحروف الجازمة: (لم، لمّا، لام الأمر، لا الناهية) وبين الفعل بأي فاصل؛ إذ لا يجوز الفصل بين حروف الجر وبين الأسماء بالأفعال [26].

ونجد سيبويه يعلّل رَفْعَ الأفعال المضارعة للأسماء بوقوعها في مواضع الاسم المرفوع مبتدأً كان أو خبرًا، أو المرفوع وهو غير مبتدأ ولا خبر، أو الاسم المجرور أو المنصوب [27].

ومن أبرز الأبواب التي أكثر فيها سيبويه من التعليل (باب ما ينصرف وما لا ينصرف)؛ إذ نجده ممتلئًا بالتعليلات [28].

سمعت مسلمات لم تدلك التاء على رفع ولا جر كما تدلك الواو والياء". الكتاب 1/ 18 هـ (4). ونرى أن الأخفش مصيب في مخالفته لسيبويه في هذه المسألة، وأن حجته قوية ومقنعة.

(23) ينظر: سيبويه، الكتاب 1/ 33.

(24) سيبويه، الكتاب 1/ 19.

25 ينظر: سيبويه، الكتاب 3/ 9.

26 ينظر: سيبويه، الكتاب 3/ 111.

(27) ينظر: سيبويه، الكتاب 3/ 9 ـ 10.

(28) ينظر: سيبويه، الكتاب 3/ 193 ـ 320.

سمات التعليل عند سيبويه ومنهجه في التعليل، تتمثل في:

1ــ القرب من طبيعة اللغة والبعد عن التكلف

وُصِفت العلة النحوية عند النحاة قبل سيبويه، وعند سيبويه ومعاصريه بأنها مستمدة من روح اللغة، أو قريبة من روح اللغة، وحِسها النافر من القبح، والثقل، والتنافر اللفظي، تعتمد على كثرة الشواهد دليلًا، وعلى الفطرة والحس طبيعةً [29]، ومن النماذج التي تتجلى فيها هذه السمة:

قوله: "وممّا يكون مضافًا إلى المعرفة ويكون نعتًا للنكرة الأسماءُ التي أُخذت من الفعل فأُريد بها معنى التنوين، من ذلك: مررتُ برجلٍ ضاربِك، فهو نعت على أنه سيضربه، كأنك قلت: مررتُ برجلٍ ضاربٍ زيدًا، ولكن حُذف التنوين استخفافًا"[30].

وقوله: "وأمّا دَخَلْتُه دُخولًا، ووَلَجْتُه وُلوجًا فإنما هي وَلَجتُ فيه، ودخلتُ فيه؛ ولكنه ألقى فيه استخفافًا، كما قالوا: نُبِّئتُ زيدًا، وإنما تريد نُبِّئتُ عن زيد"[31].

وقوله: "وقالوا: سَعِد يَسْعَدُ سعادةً، وشَقِي يشقى شَقاوةً، وسعيدٌ وشقيٌّ، فأحدهما مرفوع والآخر موضوع، وقالوا: الشقاء، كما قالوا: الجمال واللّذاذ، حذفوا الهاء استخفافًا" [32].

وقوله: "وزعموا أن بعض العرب يقول: يئسَ يَئِسُ فاعلم؛ فحذفوا الياء من يَفْعَل لاستثقال الياءات ههنا مع الكسرات"[33].

وقوله: "ونظير لا كزيدٍ في حذفهم الاسمَ قولُهم: لا عليك، وإنما يريد: لا بأس عليك، ولا شيء عليك، ولكنه حذف لكثرة استعمالهم إياه"[34].

2ــ الاكتفاء بالشواهد دون اللجوء إلى الأدلة والبراهين العقلية

ومما وصف به منهج سيبويه في التعليل أنه يغلب عليه الاكتفاء بإيراد الشواهد دون اللجوء إلى تعزيزها بالأدلة والبراهين العقلية [35]، ومن ذلك قوله: "وتقول: عجبت من كسوةٍ زيدٍ أبوه، وعجبت من كسوةِ زيدٍ أباه، إذا حذفت التنوين. ومما جاء لا ينون قول لبيد:

عهدي بها الحيَّ الجميعَ وفيهمُ

قبل التفرُّقِ مَيْسِرٌ ونِدامُ

ومنه قولهم: "سَمْعُ أُذني زيدًا يقولُ ذاك"، قال رؤبة:

ورَأيُ عينَيَّ الفتى أخاكا

يعطي الجزيلَ فعليك ذاكا" [36].

29 ينظر: المبارك، النحو العربي العلة النحوية 69 وناصف، سيبويه إمام النحاة 168 ـ 169 وعون، تطور الدرس النحوي 46 وأبو جناح، من أعلام البصرة سيبويه 103 وأبو المكارم، أصول التفكير النحوي 160.

30 سيبويه، الكتاب 1/ 425.

31 سيبويه، الكتاب 4/ 10.

32 سيبويه، الكتاب 4/ 33 ـ 34.

33 سيبويه، الكتاب 4/ 54.

34 سيبويه، الكتاب 2/ 295.

35 ينظر: المبارك، النحو العربي العلة النحوية 69 والخثران، مراحل تطور الدرس النحوي 99.

36 سيبويه، الكتاب 1/ 190 ـ 191.

وقوله: "ومنه قولهم: "هذهِ الظُّهرُ أو العصرُ أو المغرب"، إنما يريد: صلاة هذا الوقت. و"اجتمع القيظُ"، يريد: اجتمع الناس في القيظ. وقال الحطيئة:

وشرُّ المنايا مَيّتٌ بين أهلِه

كَهُلكِ الفتى قد أَسلَمَ الحَيَّ حاضرُه

يريد: منيَة ميِّت.

وقال النابغة الجعدي:

وكيف تواصل من أصبحت

خِلالَتُه كأبي مَرُحَبِ

يريد: كخلالة أبي مرحبٍ [37]".

3ـ البُعد عن الأساليب المنطقية والفلسفية

ووصف التعليل عند سيبويه أيضًا بالوقوف عند قوانين اللغة، والبعد عن اللجوء إلى استعمال أساليب الفلسفة والمنطق [38]، ومما يؤكد ذلك قول سيبويه مُعَلِّلًا بناءَ فعل الأمر: "والوقفُ قولهم: اضرب في الأمر، لم يحرّكوها لأنها لا يُوصَفُ بها، ولا تقع موقع المضارِعة، فبعُدت من المضارعة بُعْدَ كَمْ وإذْ من المتمكّنة" [39].

وقوله: "وقالوا: طَلْحَةُ الطَّلَحاتِ ولم يقولوا: طَلْحَةُ الطَّلْحينَ، فهذا يُجمَع على الأصل لا يتغيّر عن ذلك، كما أنَّه إذا صار وصفًا للمذكر لم تذهب الهاء" [40].

هنا عمد سيبويه إلى التعليل، دون أن يلجأ إلى الأساليب الفلسفية والمنطقية، وهو ما سنجده في المقابل عند المبرد.

ويظهر في هذه النماذج وغيرها من مواضع التعليل الكثيرة في "الكتاب" أن أسلوب سيبويه في التعليل بعيد عن الجدل، وأن وقفاته التعليلية كانت وقفات قصيرة، يكتفي فيها بإيراد العلة، دون اللجوء إلى تعزيزها بما يقوّيها، أو إطالة التوقف بمناقشة الأقوال المحتملة في الرد عليها، أو الساعية إلى نقضها.

لكِنْ تجدر الإشارة هنا إلى أن هذه السمات هي الغالبة في التعليل عند سيبويه، وفي منهجه في التعليل، ولا يعني هذا خلو "الكتاب" تمامًا من التعليلات العقلية البعيدة عن طبيعة اللغة وقوانين النطق، ولسنا مع التعميم الذي يطلقه بعض الدارسين في هذا الأمر.

37 سيبويه، الكتاب 1/ 215 ـ 216.

(38) ينظر: المبارك، النحو العربي العلة النحوية 69 وناصف، سيبويه إمام النحاة 168 ـ 169 وعون، تطور الدرس النحوي 46 وأبو جناح، من أعلام البصرة سيبويه 103 والعبيدي، التعليل اللغوي في كتاب سيبويه 320 وعرباوي، أصول اللغة والنحو بين الأخفش والفراء من خلال كتابيهما "معاني القرآن" 208 ـ 209.

39 سيبويه، الكتاب 1/ 17.

40 سيبويه، الكتاب 3/ 394.

المطلب الثالث: التعليل النحوي عند المبرد

بذل سيبويه في "الكتاب" جهدًا كبيرًا في التعليل لظواهر العربية، وأساليبها، وكان اهتمامه بالتعليل واضحًا، فما مدى وجود هذا الاهتمام لدى المبرد في "المقتضب"؟ أكان دون اهتمام سيبويه؟ أم كان بمستواه؟ أم كان أكثر منه؟

ووُصِف التعليل عند سيبويه بأنه لغوي، ليس فيه حرص على إيراد الأدلة والبراهين العقلية، والقوانين المنطقية، وليس فيه تكلف، وليس ذا طابعٍ فلسفي؛ فهل كان التعليل عند المبرد كذلك؟

وُسِمَ المبرد بالوَلَع بتعليل الأحكام النحوية[41]. كذلك وُصِفَ المبرد بأنه: "كان شديد الاهتمام بالتعليل، يتخذ منه سلاحًا للمناقشة والبحث، وكانت المطالبة بالعلة هي السلاح الذي شهره على الزجاج والشبكة التي صاده بها من حلقة أستاذه ثعلب، وكانت للمبرد في التعليل يد طويلة وحظ موفور، وكان فيه من المجتهدين حتى إنه ــ وهو البصري المتعصب ــ لم يحجم عن الوقوف في وجه سيبويه سيد نحاة البصرة وأستاذهم؛ لأنه قَبِل قول الخليل خاليًا من التعليل..."[42].

وما أُشيرَ إليه في هذا الوصف، من إخراج المبرد الزجاجَ من حلقة ثعلب، هو ما جاء لدى الزُّبيدي في "طبقات النحويين واللغويين" من أن المبرد رحل إلى بغداد، وأدركته الحاجة؛ فعمد إلى الوقوف في الناس بعد صلاة الجمعة، رافعًا صوته بالجواب والتفسير، بما يُوهِم أنه سُئل، حتى صارت حوله حلقة، فكان من أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب أن أرسل من طلابه الزجاج وابن الحائك؛ لطرح الأسئلة عليه حتى يعجز فينفض الناس عنه، وأن الزجاج طرح عليه عددًا من الأسئلة، فكان المبرد يجيب عن كل سؤال بما يُقنِع، ثم يُفسِد الجواب، ثم يُصَحِّحه، حتى انضم الزجاج إلى حلقته، ولازمه، وأمره المبرد باطِّراح كتب الكوفيين، وأخذ الزجاج عن المبرد حتى بَرَع[43].

ومن هذه الحكاية التي رواها الزبيدي، نرى أنه يمكن الخروج بالاستنتاجات الآتية:

1ــ إن المبرد كان ذا ذكاء وفطنة وحضور بديهة؛ يتضح ذلك من الطريقة التي اتخذها للفت أنظار الناس إليه، وإطْلاعِهم على إمكاناته، وقدراته العلمية.

2ــ تَمَكُّن المبرد في اللغة والنحو، ووصوله إلى الإحاطة بالشيء الكثير من أسرار العربية، وتفاصيلها، ودقائقها.

3ــ إنه كان ذا قدرة فائقة، وبراعة في استخراج العلل، وبسطها، وتنويعها، وذا نظر عميق وواسع، وذا إتقان لأساليب الجَدَل، وطُرُق الاحتجاج، وصور تقوية الحجج، ونقضها، وذا قدرة على الإقناع.

(41) ينظر: عضيمة، مقدمته للمقتضب 72.
(42) المبارك، النحو العربي العلة النحوية 67 ـ 68.
43 ينظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين 109 ـ 110.

4ـ إن تلك القدرات والإمكانات التي امتلكها المبرد، التي وصلت إلى حد بناء الحجج في المسألة، وإقناع المستمع بها، ثم نقضها، ثم إعادة تقويتها ـ لا نرى أنها تتأتّى له دون أن يكون على معرفة غير يسيرة بعلوم المنطق، وعلوم الكلام، بما فيها من النظر العقلي، والمقدمات والنتائج، وصور الاحتجاج، وطرق الاستدلال وأساليبه، وما إلى ذلك مما تتميز به تلك العلوم. ويبدو لنا أَنَّ ممّا يقوّي استنتاج صلة المبرد بعلوم المنطق أن الترجمة كانت قد ازدهرت في عصر المبرد، وكان مما تُرجِم من اللغات الأخرى كتب في الفلسفة والمنطق، ويبدو لنا أيضًا أَنَّ ممّا يقوّي استنتاج صلة المبرد بعلوم الكلام أن المبرد تتلمذ على المازني الذي كان معتزليًّا، ومتمكِّنًا في علوم الكلام.

4ـ إن المبرد كان لا يتقبل الآخر، شديد التعصب للبصريين، ويضيق بالكوفيين؛ ويتضح هذا من قول الزجّاج إن المبرد أمره باطّراح كتب الكوفيين (أي بتركها).

5ـ إن من الممكن أن يكون من عوامل تفوق المبرد، وبراعته في استخراج العلل، علاوةً على ما سبق، وجود حُب الجدل والغوص في دقائق المسائل، في ميول المبرد الشخصية.

6ـ إن دافِع التكَسُّب كان أحدَ عوامل لجوء المبرد إلى الإيغال في ذكر العلل، وإكثار الحجج، وتنويع أساليب الاحتجاج؛ لإظهار براعته، وقدراته الكبيرة في هذا المجال؛ لاستجلاب التلاميذ للدراسة عليه، وهذا يتضح من سياق هذه الحكاية، وما ذكره الزبيدي من إقدام المبرد على هذا التصرف حين أدركته الحاجة.

وقد أشار الياسري إلى دور هذا الدافع (التَّكَسُّب) في إيغال النحاة في التعليل، بعد ذكره لقصة المبرد الآنفة الذكر، وزاد على هذا احتمال أن يكون هذا الدافع وراءَ رَدِّ المبرد على سيبويه في جملة من المسائل [44].

كذلك قيل عن المبرد إنه سعى: "إلى إقامة معايير ثابتة، عللها الربط العقلي بين الأحكام النحوية والتصور النظري لها، فربط بين النظرية النحوية والحكم النحوي بالعلل العقلية المناسبة من وجهة نظره"[45].

سمات التعليل عند المبرد ومنهجه في التعليل

1ـ التوسُّع والتكلُّف والبُعد عن طبيعة اللغة

ويظهر ذلك عند المبرد، في نحو قوله: "... فإن قال قائل: فما بالك تقدّم الظروف وهي مفعول فيها والعامل معنى الفِعْل، ولا يجوز أن يعمل فيها معنى التنبيه كما عمل في الحال، وكلاهما مفعول فيه، فمن أين اختلفا؟ قيل له: الفَصْل بين الحال والظرف أَنَّ الحال هي الاسم الأَوَّل، فاعلًا كان أو مفعولًا أو غير ذلك من الابتداء وخبره، والظرف متضمّن للحال وغيرها، لا يقع شيء إلّا في زمان ومكان، فالحال تقع في الظروف، والظروف لا

44 ينظر: الياسري، الفكر النحوي عند العرب 263 ـ 264.

45 قزعوط، التعليل النحوي من أصالة النشأة إلى تأثره بالعلوم 159.

يقال إنَّها واقعة في الحال. فإذا قلت: يوم الجمعة زيدٌ في الدار، فـ (يوم الجمعة) غير زيد، وقد عمل فيه استقرار زيد. وإذا قلت: جاءَني زيد راكبًا، فالراكب هو زيد، وكذلك ضربت زيدًا قائمًا، وزيد منطلق راكبًا. فالقائم، والراكب، وما أشبه ذلك هو زيد، فلمّا كان إياه عمِل فيه ما يعمَل في المفعول به؛ لأَنَّه اسم مِثْلُه، ولمّا كان الظرف متضمّنًا لهذا وغيره، وكان غيرهما في المعنى إنَّما هو اسم زمان أو مكان لا يخلو من كون فيها واستقرار ـ كان الناصب لهما المعنى الذي جِيءَ بهما من أَجْله، فإن قيل: لم لا تقول: هذا زيد يومَ الجمعة، وهذا زيد شهر رمضان فتُعمل التنبيه؟ قيل له: إذا كان الظرف من المكان لم يمتنع من شيءٍ من الأَسماءِ؛ لأَنَّها تفيد فيه معنى؛ وذلك أنَّك إذا قلت: زيد عندك أو في دارك، أو بالبصرة، فقد أَفدت فيه ما قد كان يجوز أن يخلو منه، وإذا قلت: زيدٌ يومَ الجمعة، فلا معنى لهذا؛ لأنَّ يوم الجمعة لا يخلو زيد ولا غيره منه، ولا حَيٌّ ولا ميّتٌ، فلمّا لم تكن فيه فائدة قال النحويون: لا تكون ظروف الزمان للجُثَث. وإنما امتنع قولك: هذا زيدٌ يومَ الجمعة من الجواز وإن كانت (ها) للتنبيه، و(ذا) للإشارة ولم يكن مِثْل قولك: القتال شَهْرَ رمضان، ويوم الجمعة؛ لأَنَّك إذا قلت: القتال يومَ الجمعة، فقد خبّرت بشيءٍ يكون في الجمعة، قد كان يجوز أن يخلو منه، وأنت إذا قلت: هذا زيدٌ، فقد نبَّهت، وأعلمت في أي وقت هو، فلا معنى لقولك يوم الجمعة، ولا لِذِكْر وقت؛ لأَنَّ السامع في الوقت وأَنت سواءٌ، أَلا ترى أَنَّك إذا قلت: أنا آكلُ يومَ الجمعة، وأَنت تخبر عن أَنَّك تفعل هذا إذا كان يومُ الجمعة ـ كان جيدًا. ولو قلت: أنا آكُلُ يومَ الجمعة ـ تُخبر عمّا أنت فيه ـ لم يكن له معنى، فإن أردت أن تُفيد السامع أَنَّ اليومَ يومُ الجمعة قلت: أنا آكلُ، وهذا يومُ الجمعة؛ ليصير خبرًا بعد خَبر، فتفهَّم هذا فإنَّ معرفة الأُصول إحكامُ الباب، وإذا صحَّت جرت عليه المسائل على الاستقامة إن شاءَ الله" [46].

هذا نموذج من النماذج التي تكلف فيها المبرد في التعليل؛ إذ وقف وقفة مطولة معللًا بكثير من التعليلات عملَ التنبيه في الحال، وعدمَ عملِه في الظرف، أما سيبويه فلم يقف عند هذه المسألة، ولم يعلل لها.

ومنها تعليلُه رَفْعَ الفاعل، ونَصبَ المفعول به[47].

2ـ الجدل والإكثار من التعليل

ويظهر ذلك جليًّا عند المبرد، في نحو قوله: "وأما الأفعال التي تقع للأمر فلا تضارع المتمكن؛ لأنها لا تقع موقع المضارع، ولا ينعت بها؛ فلذلك سكن آخرها. فإن قال قائل: هي معربة مجزومة؛ لِأَنَّ معناها الأمرُ؛ ألا ترى أن قولك: اضرب بمنزلة قولك: لِيَضرِبْ زيدٌ في الأمر فقولُه ذلك يبطل من وجوه: منها قولك: صه ومه وقَدْكَ في موضع الأمر، وكذلك حذارِ ونزالِ ونحوهما، فقد يقعُ الشيءُ في معنى الشيء وليس من جِنْسه، ومن الدليل على فساد قوله أَنَّ هذه الأفعال المضارعةَ في الإعراب كالأَسماءِ المتمكِّنة. والأسماءُ إذا دخلت عليها العوامل لم تُغيّر أبنيتَها، إنما تُحدِث فيها الإعرابَ، وكذلك هذه الأفعال تلحقها العواملُ

(46) المبرد، المقتضب 4/ 171 ـ 172.

47 ينظر: المبرد، المقتضب 1/ 8.

فتُحدِثُ لها الإعرابَ بالزوائد التي لحقتها، وهي التاءُ، والهمزة، والنون، والياءُ اللواتي في يَفعل، وتَفعل، ونفعل، وأفعلُ. فإذا قلت (اِفْعَلْ) في الأمر لم تُلحقها عاملًا؛ ولم تُقْرِرها على لفظها؛ ألا ترى أَنَّ الجوازم إذا لحقتها لم تُغَيّر اللفظ نحو قولك: لم يضربْ زيد وإن تذهبْ أذهبْ، وكذلك ليذهبْ زيد، ولا يذهبْ عبد الله، فإنَّما يلحقها العامل وحروفُ المضارعة فيها. وأنت إذا قلت: (اذهبْ) فليس فيها عامل، ولا فيها شيءٌ من حروف المضارعة، فإن قال قائل: الإضمارُ يَعمَلُ فيها. قيل: هذا فاسد من وجهين: أحدهما: أن الفعل لا يعمل فيه الإضمار إلَّا أَنْ يُعوّض من العامل، والثاني: أنه لو كان ينجزم بجازم مُضمَر لكان حرف المضارعة فيه الذي به يجب الإعراب؛ لأن المضمر كالظاهر. ألا ترى أَنَّك لو أردت إضمار (لم) ـ وكان هذا ممّا يجوز ـ من قولك: لم يضرب، فحذفت لم ـ لبَقِيتْ (يضرب) على لفظها ومعها (لم) فإن قال قائل: فلم بناه على مقدار المضارعة؛ نحو: اِضرِب، وانطلِق فقد كسرت كما تقول: يضرِب وينطلِق. وكذلك أُقْتُل كما تقول: يقتُل? قيل: إنّما لحقت هذه البنية؛ لأَنَّه لما لم يقع، وكذلك صورة ما لم يقع. فهذا احتجاج مُغْن، وفيه ما هو أكثر من هذا"[48].

يظهر في هذا النص توسع المبرد في التعليل؛ إذ يبدو فيه بوضوح حرص المبرد على إيراد أكثر من تعليل للمسألة، وكذلك حرصه على تعليل ما يرد في المسألة من جزئيات، أو ما يرتبط بها، ويبدو كذلك حرصه على رد أقوال المخالفين، وتعزيز ردوده عليهم بالتعليل، وأنه في أكثر من موضع لا يكتفي بتعليل بطلان قول من الأقوال من جانب واحد، بل يحرص على تناول الأقوال من أكثر من جانب، وذِكر كل سبب ممكن لردها.

ومن ذلك ما ساقه المبرد في (باب العدد وتفسير وجوهه والعلة فيما وقع فيه مختلفًا)، من تعليل نصب الاسم الواقع بعد الأعداد من 11 إلى 19[49].

وهناك نماذج أُخَر تظهر ولع المبرد بالتعليل، وحرصه الكبير عليه، وكذلك هناك نماذج علل لها سيبويه تعليلًا واحدًا، في حين علل لها المبرد بتعليلين أو أكثر.

3ـ استعمال الأساليب المنطقية والفلسفية

وقد لُحِظ هذا الأمر لدى النحاة بعد سيبويه، والمبرد أحدهم، بل هو أبرزهم، ولُحِظ أيضًا لدى المبرد على وجه الخصوص [50].

تقدّم أن تعليل سيبويه بعيد عن أساليب المنطق والفلسفة، أما المبرد فلم تَخلُ بعض تعليلاته من استعمال بعض المصطلحات والتعبيرات المنطقية والفلسفية، ومن أمثلة ذلك جعل المبرد المعارفَ والنكراتِ على مستويات، أو درجات في التعريف والتنكير؛ إذ يقول:

(48) المبرد، المقتضب 2/ 3 ـ 4.
49 ينظر: المبرد، المقتضب 2/ 164 ـ 165.
(50) ينظر: السيّد، مدرسة البصرة النحوية 88 وترزي، في أصول اللغة والنحو 131 وناصف، سيبويه إمام النحاة 168 ـ 169 وأبو المكارم، أصول التفكير النحوي 160 وعون، تطور الدرس النحوي 46 والخثران، مراحل تطور الدرس النحوي 99 وعبد الكريم، مظاهر التعليل النحوي عند المبرد 149 ـ 150.

"وإنما صار الضمير معرفة لأنَّك لا تُضمره إلَّا بَعْدَ ما يعرفه السامع؛ وذلك أنك لا تقول: مررت به، ولا ضربته، ولا ذهب، ولا شيئًا من ذلك حتّى تعرفه وتدريَ إلى مَنْ يرجع هذا الضمير. وهذه المعارف بَعضُها أَعْرف من بعض، ونحن مميزو ذلك إن شاء الله؛ كما أَنَّ النكرة بعضُها أَنْكَرُ من بعض. فالشيءُ أَعَمُّ ما تكلَّمت به، والجسم أَخَصُّ منه، والحيوان أَخَصُّ من الجسم، والإنسان أَخَصُّ من الحيوان، والرجل أَخصُّ من الإنسان، ورجل ظريف أَخصُّ من رجل. واعتبر هذا بواحدة: بأَنَّك تقول: كلُّ رجل إنسان، ولا تقول: كلُّ إنسان رجل. وتقول: كلُّ إنسانٍ حيوان، ولا تقول: كلُّ حيوان إنسان"[51].

ويقول أيضًا، في موضع آخر: "ومن الأسماء المضمرة، وهي التي لا تكون إلّا بعد ذِكْر، نحو: الهاء في به، والواو في فعلوا، والألف في فَعَلا، فأَنكرُ الأَسماءِ قول القائل: شيء؛ لأنه مُبهم في الأَشياءِ كلِّها. فإن قلت جِسم فهو نكرة، وهو أَخَصُّ من شيءٍ؛ كما أن حيوانًا أَخصُّ من جسم، وإنسانًا أخصّ من حيوان، ورجلًا أخصّ من إنسان" [52].

فطابع الفلسفة، وأساليب الاستدلال المنطقية، في هذين الموضعين، من كلام المبرد في "المقتضب" ظاهران بوضوح للقارئ، ولا يُعوِزانه إلى كبير تأمل.

ومما يُلحَظ فيه التأثر بالأساليب الفلسفية والمنطقية لدى المبرد قوله: "فأَمّا طَلْحة فلو قلت في جمعها طَلْحَتون للزمك أن تكون أنَّثته وذكَّرته في حال، وهذا هو المُحالُ"[53].

وقوله: "اعلم أنك إذا صغرت بناءً من العدد يقع في ذلك البناء أدنى العدد ـ فإنك تردّه إلى أدنى العدد فتصغّره، وذلك أنك إذا صغّرت (كلابًا) قلت: أُكَيلِب؛ لأنك إنما تخبر أن العدد قليل، فإنما ترده إلى ما هو قليل، فلو صغّرت ما هو للعدد الأكثر كنت قد أخبرت أنه قليل كثير في حال، وهذا هو المُحال"[54].

ومنها أيضًا قوله في الأفعال: "وكان حَدُّها أَلّا يُعرَبَ شيءٌ منها؛ لأَنَّ الإعراب لا يكون إلا بعامل. فإذا جَعلت لها عواملَ تَعمل فيها لزمك أَن تجعل لعواملها عواملَ، وكذلك لعوامل عواملها إلى ما لا نهاية"[55].

ورأى عبدُ الرحمن السيد هذا التأثرَ ظاهرةً جديدة، اتضحت في نحو المبرد؛ نتيجة ترجمة العلوم، ومعرفة المنطق، وتأثر العلماء به، في عصر المبرد[56].

ورأى رمزي بعلبكي مظاهر الاختلاف بين استعمال سيبويه للتعليل، واستعمال المبرد متمثلةً في:

أـ تعليل المبرد ظواهر لم يعللها سيبويه.

ب ـ تعليل المبرد ما وضع له سيبويه علة واحدة بعلتين أو أكثر.

(51) المبرد، المقتضب 4/ 280.

(52) المبرد، المقتضب 3/ 186 وللمزيد ينظر: بعلبكي، الكتاب في التراث النحوي التطور في المحتوى والأساليب 107 ـ 117.

53 المبرد، المقتضب 4/ 8. وينظر: السيد، مدرسة البصرة النحوية 88.

54 المبرد، المقتضب 2/ 157. وينظر: عضيمة، أبو العباس المبرد وأثره في علوم العربية 82.

55 المبرد، المقتضب 4/ 80. وينظر: السيد، مدرسة البصرة النحوية 88.

56 ينظر: السيد، مدرسة البصرة النحوية 88.

جـ ـ ميل المبرد لإيراد كل ما أمكن من العلل للظواهر التي يدرسها.

د ـ إن علل المبرد أكثر تعقيدًا من علل سيبويه[57].

ونرى أن ثمة مظهرين بارزين كانا جديرين بإلحاقهما بهذه المظاهر؛ وهما: استعمال الأدلة العقلية والأساليب المنطقية والفلسفية، والإمعان في الجدَل والاسترسال في الرد على التعليلات المخالفة لتعليلاته.

نتائج البحث:

1ـ التعليل للظواهر اللغوية واحد من المكونات الرئيسة للفكر النحوي العربي القديم، ارتبط به منذ نشأته، وتطور بشكل تدريجي، ووصل عند الخليل، في كتاب تلميذه إلى مستوى متقدم من الاهتمام.

2ـ أضاف سيبويه جهودًا إلى جهود أستاذه الخليل في التعليل للظواهر اللغوية المختلفة؛ فبدا الاهتمام بالتعليل جليًّا في "الكتاب" في مختلف أبوابه ومباحثه.

3ـ تتسم العلة النحوية عند سيبويه ومعاصريه بقربها من طبيعة اللغة، وعدم التكلف، وعدم الميل إلى حشد الأدلة والبراهين العقلية، والبعد عن الطابع العقلي، والمنطقي، والفلسفي.

4ـ شهد التعليل النحوي توسُّعًا، وتطورًا واضحين بعد سيبويه؛ إذ شُغِف النحويون بالتعليل في مؤلفاتهم، وظهر لديهم التكلُّف والمبالغة فيه، وأُفرِد بالتأليف، وداخَلَهُ جوانب عقلية، ومنطقية، وفلسفية، بعيدة عن طبيعة اللغة، وبرز ذلك ظاهرًا عند الفراء في "معاني القرآن" وبرز أكثر عند الأخفش الأوسط في "المقاييس" ووصل القمة عند المبرد، الذي وصف بالولع بالتعليل، والإكثار منه، ووصول الاهتمام به لديه إلى مستوى الاهتمام بالأحكام النحوية.

5ـ تجلت الفروق بين سيبويه والمبرد في أكثر من مظهر، مثل تعليل ما لم يعلله سيبويه من المسائل، وتعليل ما وضع له سيبويه علة واحدة بعلتين أو أكثر، وميله لاستقصاء كل العلل الممكنة لأي ظاهرة، وكون بعض العلل عنده أكثر تعقيدًا من العلل عند سيبويه، واستعمال بعض الأساليب، والمصطلحات المنطقية والفلسفية.

6ـ يرجع انتشار التعليل، وتوسعه لدى النحاة الذين جاؤوا بعد سيبويه إلى بعض الأسباب، مثل: انتشار العلوم المنطقية والفلسفية نتيجة الترجمة، وتطور الحياة العقلية، والاجتماعية بشكل عام، وتأثير الفكر المعتزلي، والتنافس بين النحاة، ودافِع التكسُّب، وضيق مجالِ الإبداع والإضافة في المباحث النحوية بعد "الكتاب".

مقترحات البحث

1ـ إجراء مزيد من البحوث في المبرد و"المقتضب".

2ـ إجراء مزيد من البحوث في فكر نحاة القرنين الثاني والثالث الهجريين.

57 ينظر: بعلبكي، الكتاب في التراث النحوي 116.

قائمة المصادر والمراجع

[1] آل ياسين (محمد حسين)، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، دار مكتبة الحياة، بيروت ـ لبنان، ط1، 1400هـ ـ 1980م.

[2] الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء ـ الأردن، ط3، 1405هـ ـ 1985م.

[3] بعلبكي (د. رمزي)، الكتاب في التراث النحوي التطور في المحتوى والأساليب، مجلة عالم المعرفة، الكويت، كتاب رقم 297 من سلسلة الكتب الشهرية التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، (الكتاب في العالم الإسلامي)، شعبان 1424هـ ـ أكتوبر 2003م.

[4] ترزي (د. فؤاد حنّا)، في أصول اللغة والنحو، مطبعة دار الكتب، بيروت ـ لبنان، 1969م.

[5] أبو جناح (د. صاحب)، من أعلام البصرة سيبويه هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه، من الأبحاث المقدمة لمهرجان المربد الثالث 1974م، منشورات وزارة الإعلام العراقية، 1974م.

[6] ابن جني (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، 1999م.

[7] الحديثي (د. خديجة)، الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، مطبوعات جامعة الكويت، 1394هـ ـ 1974م.

[8] حسين (سناء علي)، مظاهر التعليل في كتاب سيبويه، مجلة دواة، العراق، المجلد الخامس، العدد الثامن عشر، السنة الخامسة (صفر 1440هـ ـ تشرين الثاني 2018م).

[9] الحموي (ياقوت)، معجم الأدباء، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي . بيروت، ط1، 1993م.

[10] الخثران (د. عبد الله بن حمد)، مراحل تطور الدرس النحوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1413هـ ـ 1993م.

[11] دياب (ناهد محمد أحمد)، التعليل النحوي عند ابن الأنباري من خلال كتابه أسرار العربية، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات النحوية واللغوية، 1424هـ ـ 2003م.

[12] الراجحي (د. عبده)، دروس في المذاهب النحوية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، 1980م.

[13] الرفوع (صدام ممدوح)، أثر العلل النحوية في المسائل الخلافية في النحو العربي، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الدراسات العليا، جامعة مؤتة، 2008م.

[14] الزُّبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف . مصر، ط 2، د.ت.

[15] الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق الدكتور مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط3، 1399هـ ـ 1979م.

[16] سالم (الأستاذ محيي الدين)، التعليل في الدرس النحوي العربي، مجلة العلوم الإنسانية، الجزائر، العدد 22، ديسمبر 2004م.

[17] السامرائي (د. إبراهيم)، المدارس النحوية أسطورة وواقع، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان ـ الأردن، ط1، 1987م.

[18] ستيلي (وهيبة)، العلة النحوية بين سيبويه وابن جني ـ دراسة موازنة، رسالة ماجستير، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة تلمسان، الجزائر، 2011 ـ 2012م.

[19]ابن سلّام، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، د. ط، د. ت.

[20] سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط3، 1408هـ . 1988م.

[21] السيد (د. عبد الرحمن)، مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها، ساعدت جامعة البصرة على نشر هذا الكتاب، توزيع دار المعارف بمصر، ط1، 1388هـ ـ 1968م.

[22] ضيف (د. شوقي)، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، ط7، 1968م.

[23] الطويل (د. السيد رزق)، الخلاف بين النحويين دراسة وتحليل وتقويم، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ط1، 1405 هـ ـ 1985م.

[24] عبد الكريم (د. أحمد إسماعيل)، مظاهر التعليل النحوي عند المبرد (210 ـ 285هـ)، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، العدد السابع والثمانون، ذو القعدة 1435هـ/ أيلول (سبتمبر) 2014م.

[25] العبيدي (د. شعبان عوض محمد)، التعليل اللغوي في كتاب سيبويه، جامعة قاريونس، بنغازي ـ ليبيا، ط1، 1999م.

[26]عرباوي (أحمد الشايب)، أصول اللغة والنحو بين الأخفش والفراء من خلال كتابيهما "معاني القرآن"، رسالة دكتوراه، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية الآداب واللغات، قسم الآداب واللغة العربية، الجزائر، 2013/ 2014م.

[27] عضيمة (محمد عبد الخالق)، أبو العباس المبرد وأثره في علوم العربية، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1405هـ.

[28] عضيمة (محمد عبد الخالق)، مقدمة تحقيق "المقتضب" للمبرد، عالم الكتب، بيروت، د. ط، د. ت.

[29] عوض (د. سامي) وعبود (يوسف)، موقف النحويين العرب من التعليل النحوي حتى القرن السادس الهجري، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، اللاذقية ـ سورية، المجلد السادس والثلاثون، العدد الخامس، 2014م.

[30] عون (د. حسن)، تطور الدرس النحوي، جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، د. ط، 1970م.

[31] الفيروزآبادي، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق محمد المصري، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1421هـ ـ 2000م.

[32]قزعوط (سليم)، التعليل النحوي من أصالة النشأة إلى تأثره بالعلوم، المجلة التعليمية، جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس، كلية الآداب واللغات والفنون، الجزائر، المجلد السادس، العدد الرابع، ديسمبر 2019م.

[33]القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ـ مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1406هـ ـ 1986م.

[34] المبارك (د. مازن)، النحو العربي العلة النحوية نشأتها وتطورها، بحث في نشأة النحو وتاريخ العلة النحوية ورصد لحركة التعليل وتطوره حتى القرن العاشر للهجرة، المكتبة الحديثة، دمشق، ط1، 1385هـ ـ 1965م.

[35] المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد)، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، د. ط، د. ت.

[36] أبو المكارم (د. علي)، أصول التفكير النحوي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2006م.

[37] الملخ (د. حسن خميس)، نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان ـ الأردن، ط1، الإصدار الأول، 2000م.

[38] ناصف (علي النجدي)، سيبويه إمام النحاة، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1399هـ ـ 1979م.

[39] ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، تحقيق رضا تجدد، طهران، (د. ن)، 1971م.

[40] النهاري (محمد بن أحمد مهدلي)، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1413هـ.

[41]الياسري (د. علي مزهر)، الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه، الدار العربية للموسوعات، بيروت ـ لبنان، ط1، 1423هـ ـ 2003م